سلسلة الدين النصيحة - الاصدار (٢٥)

دور المرأة في إصلاح المجتمع

لفضيلة الشيخ
محمد الصالح العثيمين
رحمه الله

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بسلطانة
هاتف: ٤٢٤٠٠٧٧ ناسوخ: ٤٢٥١٠٠٥ ص . ب ٩٢٦٧٥ - الرياض ١١٦٦٣
البريد الإلكتروني: E-mail sultanah22@hotmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق، فبلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإنه يسرني أن أحضر لأُعبر عما في نفسي في هذا الموضوع الخطير، وهو «دور المرأة في إصلاح المجتمع».

فأقول مستعيناً بالله عزّ وجلّ، طالباً منه التوفيق للصواب والسداد: إن دور المرأة في إصلاح المجتمع يكون على نوعين:

النوع الأول: الإصلاح الظاهر:

وهو الذي يكون في الأسواق، وفي المساجد، وفي غيرها من الأمور الظاهرة، وهذا يغلب فيه جانب الرجال لأنهم هم أهل البروز والظهور.

النوع الثاني: إصلاح المجتمع فيما وراء الجُدُر:

وهو الذي يكون في البيوت، وغالب مهمته موكول إلى النساء لأن المرأة هي ربة البيت، كما قال الله سبحانه وتعالى موجهاً الخطاب والأمر إلى نساء النبي ﷺ في قوله:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ

﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣].

أهمية دور المرأة في إصلاح المجتمع:

نظن بعد ذلك أنه لا ضير علينا إن قلنا: إن إصلاح نصف المجتمع أو أكثر يكون منوطاً بالمرأة، وذلك لسببين:

السبب الأول:

أن النساء كالرجال عدداً، إن لم يكنَّ أكثر، أعني أن ذرية آدم أكثرهم من النساء، كما دلَّت على ذلك السنة النبوية، ولكنها تختلف من بلد إلى بلد ومن زمن إلى زمن، فقد تكون النساء في بلدٍ مَّا أكثر من الرجال، وقد يكون العكس في بلد آخر، كما أن النساء قد يكنّ أكثر من الرجال في زمن، والعكس في زمن آخر.
وعلى كل حال فإن للمرأة دوراً كبيراً في إصلاح المجتمع.

السبب الثاني:

أن نشأة الأجيال أول ما تنشأ إنما تكون في أحضان النساء، وبه يتبين أهمية ما يجب على المرأة في إصلاح المجتمع.

مقومات إصلاح المرأة في المجتمع

لكي تتحقق أهمية المرأة في إصلاح المجتمع، لابد للمرأة من مؤهلات أو مقومات لتقوم بمهمتها في الإصلاح.. وإليكم جانباً من هذه المقومات:

المقوم الأول: صلاح المرأة:

أن تكون المرأة نفسها صالحة؛ لتكون أُسوة حسنة، وقدوة طيبة لبنات جنسها؛ ولكن كيف تصل المرأة إلى الصلاح؟ لتعلم كل امرأة أنها لن تصل إلى الصلاح إلا بالعلم، وما أعنيه هو العلم الشرعي الذي تتلقاه؛ إما من

بطون الكتب ـ إن أمكنها ذلك ـ وإما من أفواه العلماء سواء أكان هؤلاء العلماء من الرجال أو من النساء .

وفي عصرنا هذا يسهل كثيراً أن تتلقى المرأة العلم من أفواه العلماء ؛ وذلك بواسطة الأشرطة المسجلة ، فإن هذه الأشرطة ـ ولله الحمد ـ لها دور كبير في توجيه المجتمع إلى ما فيه الخير والصلاح ؛ إذا استعملت في ذلك .

إذن فلابد لصلاح المرأة من العلم ، لأنه لا صلاح إلا بالعلم .

المقوم الثاني: البيان والفصاحة:

أي أن يمن الله عليها ـ أي على المرأة ـ بالبيان والفصاحة ؛ بحيث يكون عندها طلاقة لسان وتعبير بيان تُعبر به عما في ضميرها تعبيراً صادقاً ، يكشف ما في قلبها وما في نفسها من المعاني ، التي قد تكون عند كثير من الناس ، ولكن يعجز أن يُعبر عنها ، أو قد يُعبر عنها بعبارات غير واضحة وغير بليغة ؛ وحينئذ لا يحصل المقصود الذي في نفس المتكلم من إصلاح الخلق .

وبناء على ذلك نسأل : ما الذي يوصل إلى هذا ؛ أي يوصل إلى البيان والفصاحة والتعبير عما في النفس بعبارة صادقة كاشفة عما في الضمير ؟ .

نقول : الطريق إلى ذلك هو أن يكون عند المرأة شيء من العلوم العربية : نحوها ، وصرفها ، وبلاغتها ؛ وحينئذ لابد أن يكون للمرأة دروس في ذلك ولو قليلة ، بحيث تُعبر عما في نفسها تعبيراً صحيحاً تستطيع به أن توصل المعنى إلى أفئدة النساء اللاتي تخاطبهن .

المقوم الثالث: الحكمة:

أي أن يكون لدى المرأة حكمة في الدعوة ، وفي إيصال العلم إلى من تخاطب ، وحكمة في وضع الشيء في

موضعه، كما قال أهل العلم، وهي نعمة الله سبحانه على العبد أن يؤتيه الله الحكمة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٦٩]. وما أكثر ما يفوت المقصود ويحصل الخلل؛ إذا لم تكن هناك حكمة! فمن الحكمة في الدعوة إلى الله عزّ وجل أن ينزل المخاطب المنزلة اللائقة به، فإذا كان جاهلاً عومل المعاملة التي تناسب حاله، وإذا كان عالماً، ولكن عنده شيء من التفريط والإهمال والغفلة عُومل بما تقتضيه حاله، وإذا كان عالماً، ولكن عنده شيء من الاستكبار وردّ الحق عُومل بما تقتضيه حاله.

فالناس - إذن - على درجات ثلاث: جاهل، وعالم متكامل، وعالم معاند، ولا يُمكن أن نسوي كل واحد بالآخر؛ بل لابد أن نُنزل كل إنسان منزلته، ولهذا لما أرسل النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب»، وإنما قال له النبي ﷺ ذلك؛ ليعرف معاذ حالهم كي يستعد لهم بما تقتضيه هذه الحال ويخاطبهم بما تقتضيه هذه الحال أيضاً.

أمثلة على استعمال الحكمة في دعوته ﷺ:

ويدل على استعمال الحكمة في الدعوة إلى الله وقائع وقعت ممن هو أحكم الخلق في الدعوة إلى الله، ألا وهو النبي محمد ﷺ، ولنضرب لذلك أمثلة:

المثال الأول: الأعرابي الذي بال في المسجد:

أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه؛ أن أعرابياً دخل المسجد ثم جعل يبول، فأخذت الصحابة الغيرة، فنهوه وصاحوا به؛ ولكن النبي ﷺ الذي أوتي الحكمة في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، قال: «لا تزرموه» أي لا تقطعوا عليه بوله، فلما قضى

الأعرابي بوله أمر النبي ﷺ أن يُصب عليه - أي على البول - ذَنُوباً من ماء - أي دلواً من ماء - ثم دعا الأعرابي وقال له: «إن المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى - أو من القذر - وإنما هي للصلاة، وقراءة القرآن، وذكر الله عزّ وجلّ» أو كما قال ﷺ.

وقد روى الإمام أحمد رحمه الله، أن هذا الأعرابي قال: «اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً».

ونأخذ من هذه القصة العبر التالية:

العبرة الأولى:

أن الصحابة رضي الله عنهم أخذتهم الغيرة، وصاحوا بهذا الأعرابي، فيؤخذ من ذلك أنه لا يجوز الإقرار على المنكر، بل الواجب المبادرة بالإنكار على فاعل المنكر، ولكن إذا كانت المبادرة تؤدي إلى أمر أكبر ضرراً، فإن الواجب التأني، حتى تزول هذه المفسدة الكبرى، ولهذا نهاهم النبي ﷺ، بل زجرهم عن أن ينهوا الأعرابي ويصيحوا به.

العبرة الثانية:

أن النبي ﷺ أقر منكراً لدفع ما هو أنكر منه، فالمنكر الذي أقره هو استمرار هذا الأعرابي في التبول، والمنكر الذي دفعه بهذا الإقرار هو أن هذا الأعرابي لو قام لا يخلو من أمرين:

❊ إما أن يقوم مكشوف العورة لئلا تتلوث ثيابه بالبول، وحينئذ يتلوث منه المسجد بقدر أكبر، ويبدو الرجل للناس وهو كاشف عورته وهاتان مفسدتان.

❊ وإما إذا لم يقم على هذا الوجه؛ فإنه سوف يستر عورته، ولكن تتلوث ثيابه بما يصيبها من البول، فمن أجل هاتين المفسدتين أقره النبي ﷺ على استكمال البول، على

أنه أيضاً قد حصلت المفسدة بالبول في المسجد من أول الأمر، فإذا قام؛ فإن هذه المفسدة التي حصلت لن تختفي؛ إلا إلى شيء أنكر منه، فإن الواجب الإمساك دفعاً لكبرى المفسدتين بصغراهما.

ولهذا أصل في كتاب الله، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [سورة الأنعام، آية: ١٠٨].

كلنا يعلم أن سب آلهة المشركين من الأمور المحبوبة لله عز وجلّ، ولكن لما كان سب هذه الآلهة يؤدي إلى سبِّ من ليس أهلًا للسبِّ، وهو الرب عزّ وجلّ، فقد نهانا الله سبحانه عن سب آلهتهم في الآية السابقة.

العبرة الثالثة:

أن النبي ﷺ بادر بإزالة المفسدة، لأن التأخير له آفات، إذ كان من الممكن أن يؤخر النبي ﷺ تطهير هذه البقعة من المسجد، حتى يحتاج الناس إلى الصلاة فيها، فتطهر من أجل ذلك؛ ولكن من الأولى أن يُبادر الإنسان إلى إزالة المفسدة حتى لا يعتريه فيما بعد عجز أو نسيان؛ وهذه نقطة هامة جداً، وهي أن يُبادر الإنسان بإزالة المفسدة، خوفاً من العجز عن إزالتها في المستقبل، أو نسيانه. فمثلًا: لو أصابت الثوب نجاسة وهو ثوب يُصلي فيه، أو لا يصلي فيه فالأولى أن يُبادر بغسل هذه النجاسة، وألا يؤخره؛ لأنه ربما ينسى في المستقبل، أو يعجز عن إزالتها إما لفقد الماء، أو لغير ذلك.

ولهذا لما جيء إلى النبي ﷺ بصبي أقعده في حجره، فبال الصبي في حجر النبي ﷺ، فأمر ﷺ بماء فأتبع البول مباشرة، ولم يؤخر غسل ثوبه إلى وقت الصلاة لما ذكرناه آنفاً.

العبرة الرابعة:

أن النبي ﷺ أخبر الأعرابي بشأن هذه المساجد وأنها بنيت للصلاة، وقراءة القرآن، وذكر الله، أو كما قال ﷺ لا يصلح فيها شيء من الأذى والقذر.

إذن فشأن المساجد: أن تُعظم، وأن تُنظف، وأن تُطهر، وألا يُعمل فيها إلا ما يُرضي الله تعالى، من الصلاة، وقراءة القرآن، وذكر الله عزّ وجلّ ونحو ذلك.

العبرة الخامسة:

أن الإنسان إذا دعا غيره بالحكمة واللطف واللين حصل من المطلوب ما هو أكبر مما لو أراد معالجة الشيء بالعنف، وقد اقتنع هذا الأعرابي اقتناعاً تاماً بما علَّمه النبي ﷺ، حتى إنه قال هذه الكلمة المشهورة: «اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً».

فنجد هنا أن النبي ﷺ استعمل مع هذا الرجل جانب اللين والرفق؛ لأنه جاهل بلاشك، إذ لا يمكن لعالم بحرمة المسجد، ووجوب تعظيمه أن يقوم أمام الناس ليبول في جانب منه.

المثال الثاني: الصحابي الذي جامع زوجته في نهار رمضان:

أخرج البخاري: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هَلَكْتُ، قال: «مَا أَهْلَكَكَ؟» قال: وقعتُ على امرأتي في رمضان وأنا صائم - وهذا جرم عظيم أن يتعمد الإنسان جماع زوجته وهو صائم في رمضان - ولكن لننظر كيف عامله النبي ﷺ، هل زجره؟ هل تكلم عليه؟ هل وبخه؟ لا، لأن الرجل جاء تائباً نادماً، وليس مُعرضاً مستهتراً غير مُبال بما جرى منه، فسأله النبي ﷺ: هل يجد رقبة ليعتقها كفارة عما وقع منه؟

فقال : لا ، فسأله : هل يستطيع أن يصوم شهرين متتابعين ؟ فقال : لا ، فسأله : هل يستطيع أن يُطعم ستين مسكيناً ؟ فقال : لا ، ثم جلس الرجل فأُتي النبي ﷺ بتمر ، فقال : «خذ هذا فتصدق به» يعني كفارة : فقال : أعلى أفقر مني يارسول الله ، والله مابين لا بيتها أهل بيت أفقر مني فضحك النبي ﷺ ، حتى بدت نواجذه ، ثم قال : «أطعمه أهلك» .

فنجد في هذه القصة عبراً منها ؛ أنه ﷺ لم يُعنّف الرجل ، ولم يزجره ، ولم يُوبخه ، لأنه جاء تائباً نادماً ، وهناك فرق بين رجل مُعاند ، ورجل مُسالم ، جاء يستنجد بنا ويطلب منا أن نُخلصه مما وقع فيه ، لذلك عامله النبي ﷺ بهذه المعاملة ، حيث ردّه إلى أهله ومعه الغنيمة التي حملها من رسول الله ﷺ ، وهي هذا التمر الذي كان مفروضاً عليه أن يُطعمه ستين مسكيناً ، لو لم يكن فقيراً .

المثال الثالث: الرجل الذي عطس في الصلاة:

نأخذ هذا المثال من حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه ، حين دخل مع النبي ﷺ وهو يصلي فعطس رجل من القوم فقال : الحمد لله ، فقال له معاوية : يرحمك الله ، فرماه الناس بأبصارهم ، يعني استنكاراً لقوله ، فقال : واثكلَ أُمِّياه ، فجعلوا يضربون على أفخاذهم يُسكتونه فسكت ، فلما انصرف النبي ﷺ من الصلاة ، دعاه وقال له : «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح ، التكبير ، وقراءة القرآن» أو كما قال ﷺ .

قال معاوية : فبأبي هو وأمي ، ما رأيتُ معلماً أحسن تعليماً منه ، والله ما كهرني ، ولا ضربني ولا شتمني .

المثال الرابع: الرجل الذي لبس خاتماً من ذهب:

نأخذ هذا المثال من قصة الرجل الذي كان عليه خاتم من ذهب ، وكان النبي ﷺ قد بيّن أن الذهب حرام على ذكور

هذه الأمة، فقال النبي ﷺ: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيضعها في يده»، ثم نزع النبي ﷺ الخاتم بنفسه، ورمى به فلما انصرف النبي ﷺ قيل للرجل: خذ خاتمك وانتفع به، فقال: والله لا آخذ خاتماً طرحه النبي ﷺ.

نرى في معاملة النبي ﷺ لهذا الرجل شيئاً من الشدة، إذ الظاهر أن هذا الرجل كان قد بلغه الخبر بأن الذهب حرام على ذكور هذه الأمة فلهذا عامله النبي ﷺ هذه المعاملة التي هي أشد من معاملة من ذكرنا سابقاً.

إذن لابد أن يكون الداعية مُنزلاً لكل إنسان منزلته بحسب ما تقتضيه الحال: فهناك جاهل لا يدري، وهناك عالِم ولكن عنده فتور وكسل، وهناك عالِم ولكنه مُعاند ومُستكبر، فيجب أن يُنزل كل واحد من هؤلاء المنزلة اللائقة به.

المقوم الرابع: حسن التربية:

أي أن تكون المرأة حسنة التربية لأولادها؛ لأن أولادها هم رجال المستقبل، ونساء المستقبل، وأول ما ينشؤون يُقابِلُون هذه الأم؛ فإذا كانت الأم على جانب من الأخلاق، وحسن المعاملة، وظهروا على يديها وتربوا عليها، فإنهم سوف يكون لهم أثر كبير في إصلاح المجتمع.

لذلك يجب على المرأة ذات الأولاد أن تعتني بأولادها، وأن تهتم بتربيتهم، وأن تستعين إذا عجزت عن إصلاحهم وحدها، بأبيهم أو بولي أمرهم، إذا لم يكن لهم أب من إخوة، أو أعمام، أو بني إخوة، أو غير ذلك.

ولا ينبغي للمرأة أن تستسلم للواقع، وتقول: سار الناس على هذا فلا أستطيع أن أُغير لأننا لو بقينا هكذا مستسلمين للواقع ما تم الإصلاح إذ إن الإصلاح لابد أن يغير ما فسد إلى وجه صالح، ولابد أن يغير الصالح إلى ما

هو أصلح حتى تستقيم الأمور.

ثم إن التسليم للواقع أمر غير وارد في الشريعة الإسلامية، ولهذا لما بُعث النبي ﷺ في أمةٍ مُشركة يعبد أفرادها الأصنام، ويقطعون الأرحام، ويظلمون ويبغون على الناس بغير حق، لم يستسلم ﷺ؛ بل لم يأذن الله له أن يستسلم للأمر الواقع، بل قال سبحانه له: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: آية ٩٤].

أمره سبحانه أن يصدع بالحق، وأن يُعرض عن المشركين، ويتناسى شركهم وعدوانهم حتى يتم له الأمر، وهذا هو الذي حصل، نعم قد يقول قائل: إن من الحكمة أن نُغير، لكن ليس بالسرعة التي نريدها؛ لأن المجتمع على خلاف ما نريد من الإصلاح، فحينئذ لابد أن ينتقل الإنسان بالناس لإصلاحهم من الأهم إلى ما دونه، أي يبدأ بإصلاح الأهم والأكثر إلحاحاً، ثم ينتقل بالناس شيئاً فشيئاً حتى يتم له مقصوده.

المقوم الخامس: النشاط في الدعوة:

أي أن يكون للمرأة دور في تثقيف بنات جنسها، وذلك من خلال المجتمع، سواء أكان في المدرسة، أو الجامعة، أو في مرحلة ما بعد الجامعة كالدراسات العليا، كذلك أيضاً من خلال المجتمع فيما بين النساء من الزيارات التي يحصل فيها من الكلمات المفيدة ما يحصل.

ولقد بلغنا ـ ولله الحمد ـ أن لبعض النساء دوراً كبيراً في هذه المسألة، وأنهن قدرتبن جلسات لبنات جنسهنّ في العلوم الشرعية، والعلوم العربية، وهذا لا شك أمر طيب تُحمد المرأة عليه، وثوابه باق لها بعد موتها لقول النبي ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

فإذا كانت المرأة ذات نشاط في مجتمعها في نشر الدعوة، من خلال الزيارات، أو من خلال المجتمعات في المدارس أو غيرها، كان لها أثر كبير، ودور واسع في إصلاح المجتمع.

هذا هو ما حضرني الآن بالنسبة لدور المرأة في إصلاح المجتمع، وذكر مقومات هذا الإصلاح.

هذا والله سبحانه أسأل أن يجعلنا هداة مهتدين، وصالحين مُصلِحين، وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فضيلة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

ـ رحمه الله ـ

* * *

الصف؛ دار المسلم، ت: ٤٩٣١١٤٩
مطابع الحميضي: ت: ٤٥٨١٠٠٠ ف: ٤٥٩٢٢١٧ الرياض